لذلك استدلوا على ضعف النساء بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [يوسف] وما دام أن كيدهن عظيم ، فضعفهن أيضاً عظيم أو حتى أعظم .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾ [الأنبياء] والأخسرون جمع أخسر ، على وزن أفعل ؛ ليدل على المبالغة فى الخُسْران ، وقد كانت خسارتهم فى مسألة حَرْق إبراهيم من عدَّة وجوه : أولاً أن إبراهيم عليه السلام لم يُصبْه سوء رغم إلقائه فى النار ، ثم إنهم لم يَسْلَموا من عداوته ، وبعد ذلك سيُجازون على فعْلهم ، هذا فى الآخرة ، فأىُّ خُسْران بعد هذا ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ (٧١) ﴾

﴿ نَجَّيْنَاهُ .. (٧١) ﴾ [الأنبياء] يعنى : كان هناك شرٌّ يصيبه ، وأذىً يلحق به ، فنجّاه الله منه ، وهذه النجاة مستمرة ، فبعد أنْ أنجاه الله من النار أنجاه أيضاً ممَّا تعرَّض له من أذاهم .

﴿ وَلُوطًا .. (٧١) ﴾ [الأنبياء] وكان لوط عليه السلام ابنَ أخ إبراهيم ﴿ إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) ﴾ [الأنبياء] أى : قلنا لإبراهيم : اترك هذه الأرض - وهى أرض بابل من العراق - واذهب إلى الأرض المقدسة بالشام ، وخُذْ معك ابن أخيك ، فبعد أنْ نجاهما الله لم يتركهما فى هذا المكان ، بل اختار لهما هذا المكان المقدس .

والأرض حينما تُوصَف يُراد بها أرضاً مُحدَّدة مخصوصة ، فإذا لم تُوصَف فتطلق على الأرض عامة إلا أن يعينها سياق الحال ، فمثلاً لما قال أخو يوسف : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِى أَبِى .. (٨٠) ﴾ [يوسف]

فالسياق يُوضِّح لنا أنها أرض مصر .

لكن قوله : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] فلم تُعيِّن ، فدلَّ ذلك على أنها الأرض عامة ، اسكنوا كُلَّ الأرض ، يعني : تبعثروا فيها ، ليس لكم فيها وطن مستقل ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

فإذا أراد الله تجمعوا من الشتات ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] أي : المرة التي سينتصرون فيها ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾ [الإسراء] وهكذا يتجمَّعون في مكان واحد ، فيسْهُلُ القضاء عليهم .

ومعنى ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا .. (٧١) ﴾ [الأنبياء] البركة قد تكون مادية أو معنوية ، وهي الزروع والثمار والأنهار والخيرات ، أو بركة معنوية ، وهي بركة القيَم في الأرض المقدسة ، وهي أرض الأنبياء ، ومعالم النبوة والرسالات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً[(١)] وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾

يعطينا الحق سبحانه هنا لقطةً من قصة إبراهيم لكن بعيدة عمَّا نحن بصدده من الحديث عنه ، فقد وهب الله لإبراهيم إسحق لما دعا الله قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾ [الصافات] مع أنه كان عنده

(١) النافلة : الحفيد ؛ لأنه زيادة بعد الابن . [القاموس القويم ٢ / ٢٨٠] . قال القرطبي في تفسيره (٦ / ٤٤٨٤) : « أي : زيادة ؛ لأنه دعا في إسحاق ، وزيد في يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة ، أي : زيادة على ما سأل ، ويُقال لولد الولد نافلة ؛ لأنه زيادة على الولد » .

إسماعيل ، لكن إسماعيل من هاجر ، وقد تحركت مشاعر الغَيْرة لدى سارة ، ووجدت فى نفسها ما تجده النساء فى مسألة الولد ، وكيف يكون لإبراهيم ولد من هاجر التى زوَّجتها له دون أن يكون لها مثْله .

لذلك ألحَّتْ سارة على إبراهيم أن يدعو الله أنْ يرزقها الولد ، فدعا إبراهيم ربه ، وأراد الحق سبحانه أن يجيب إبراهيم ، وأن يُحقِّق له ما ترجوه زوجته ، لكن أراد أن يعطيه هذا الولد فى ملحظ عقدى يُسجَّل ولا يزول عن الأذهان أبداً ، ويظلُّ الولد مقترناً بالحادثة .

فبداية قصة إسحق لما أمر الله نبيه إبراهيم فى الرؤيا أن يذبح ولده إسماعيل ، فأخبره برؤياه : ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

أراد إبراهيم أنْ يُشرك ولده معه فى هذا الاختبار ، وألاَّ يأخذه على غرَّة حتى لا تتغير نفسه نحو أبيه فيكرهه وهو لا يعلم ما حدث ، وأراد أيضاً ألاَّ يحرم ولده من الثواب والأجر على هذه الطاعة وهذا الصبر على البلاء .

أما إسماعيل فمن ناحيته لم يعارض ، ولم يقُلْ مثلاً : يا أبت هذه مجرد رؤيا وليست وحياً ، وكيف نبنى عليها ، بل نراه يقول : ﴿ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات] ولم يقُلْ : أفعل ما تقول ، فما دام الأمر من الله فافعل ما أمرتَ به ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا .. (١٠٣) ﴾ [الصافات] أى : هما معاً إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] يقال : تله يعنى جعل رأسه على

(١) تلَّه : ألقاه على وجهه على الأرض ، وقوله ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] . أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض . [القاموس القويم ١٠١/١] .

التل ، وهو المكان المرتفع من الأرض ، و ﴿ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : جعل جبهته مباشرة للأرض ، بحيث يذبحه من قفاه ، وهذا هو الذَّبْح العاجل المثمر .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات] وما دُمْتَ صدَّقْتَ الرؤيا ، فلكَ جزاء الإحسان ؛ لأنك أسرعتَ بالتنفيذ مع أنها رؤيا ، كان يمكنه أن يتراخى فى تنفيذها ، لكنه بمجرد أن جاء الأمر قام وولده بتنفيذه .

إذن : الحق سبحانه لا يريد من عبده إلا أنْ يُسلِّم بقضائه ، وصدق القائل[1] :

سلِّم لربِّكَ حُكْمَهُ فَلِحكْمَةٍ يَقْضِيه حتى تستريح وتنْعمَا
واذْكُرْ خليلَ الله فى ذَبْحِ ابنه إذ قال خالقه فلما أسلمَا

لذلك لا يرفع الله قضاءً يقضيه على خلقه إلا إذا رُضِىَ به ، فلا أحدَ يُجبر الله على شىء . وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثَل الأعلى - بالأب حين يدخل ، فيجد ولده على أمر يكرهه ، فيزجره أو يضربه ضربة خفيفة تُعبِّر عن غضبه ، فإنْ خضع الولد لأبيه واستكان عاد الوالد عطوفاً حانياً عليه وربما احتضنه وصالحه ، أمّا لو عارض الولد وتبجَّح فى وجه والده فإنه يشتد عليه ويُضاعف له العقوبة ، وتزداد قسوته عليه .

وهكذا الحال مع إبراهيم ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات] ففدينا له إسماعيل ، ليس هذا وفقط بل ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات] ثم زاده بأنْ جعل إسحق أيضاً نبياً مثل إسماعيل ، هذه هى مناسبة الكلام عن إسحق ويعقوب .

---

(١) الشيخ رحمه الله .

هنا يقول تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً .. (٧٢) ﴾ [الأنبياء] والنافلة : الزيادة ، وقد طلب من ربه ولداً من الصالحين ، فبشَّره الله بإسحق ومن بعده يعقوب وجميعهم أنبياء ؛ لذلك قال ﴿ نَافِلَةً .. (٧٢) ﴾ [الأنبياء] يعنى : أمر زائد عما طلبتَ ، فإجابة الدعاء بإسحق ، والزيادة بيعقوب ، وسرور الإنسان بولده كبير ، وبولد ولده أكبر ، كما يقولون : « أعز من الولْد ولْد الولد » والإنسان يضمن بقاء ذِكْره فى ولده ، فإن جاء ولد الولد ضَمِن ذِكْره لجيل آخر .

والهبة جاءت من الله ؛ لأن المرأة لم تكُنْ صالحة للإنجاب ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ[1] فَصَكَّتْ[2] وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) ﴾ [الذاريات] فردَّ عليها : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (٧٣) ﴾ [هود] أى : أنه سبحانه قادر على كل شىء .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾ [الأنبياء] فالحفيد نافلة وزيادة فى عطاء الذرية ، ومبالغة فى الإكرام ، ثم يمتن الله على الجميع بأن يجعلهم صالحين ، ويجعلهم أنبياء ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) ﴾ [مريم]

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾

---

(١) الصرة : تقطيب الوجه ، والصيحة ، والجماعة ، أى : أقبلت فى صيحة من التعجب ، أو فى تقطيب وجه استبعاداً وتعجباً ، أو فى جماعة من خدمها . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤].

(٢) الصك : الضرب الشديد بالشىء العريض ، وقيل : هو الضرب عامة بأى شىء كان . [لسان العرب ـ مادة : صكك] .

أئمة : ليس المقصود بالإمامة هنا السُّلْطة الزمنية من باطنهم ، إنما إمامة القدوة بأمر الله ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا .. (٧٣) ﴾ [الانبياء] فهم لا يصدرون في شيء إلا على هُدًى من الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ .. (٧٣) ﴾ [الانبياء] أي : يفتح لهم أبواب الخير ويُيسِّر لهم ظروفه ؛ لأن الموفَّق الذي يتوفَّر لديه الاستعداد للخير يفتح الله له مصارف الخير ويُعينه عليه

﴿ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ .. (٧٣) ﴾ [الانبياء] وإقامة الصلاة هي : عَيْن الخيرات كلها ؛ لأن الخيرات نعمة ، لكن إقامة الصلاة حضرة في جانب المنعم سبحانه ، فالصلاة هي خَيْر الخَيْر .

ومع ذلك نجد مَنْ يتشاغل عن الصلاة ، ويعتذر بالعمل وعدم الوقت ... الخ وكلها أعذار واهية ، فكنتُ أقول لبعض هؤلاء : بالله عليك لو احتجتَ دورة المياه أتجد وقتاً أم لا ؟ يقول : أجد الوقت ، فلماذا - إذن - تحتال في هذه المسألة وتدبر الوقت اللازم ، ولا تحتال في وقت الصلاة ؟

وربك عز وجل لو علم منك أنك تُجيب نداءه لَسهَّل لك الإجابة ، وقد رأينا الحق سبحانه يُسخِّر لك حتى الكافر ليعينك على أمر الصلاة .

ففي إحدى سفرياتنا إلى بلجيكا رأينا أن أولاد المسلمين هناك لا يدرسون شيئاً من الدين الإسلامي في المدارس ، بل يُدرِّسون لهم الدين المسيحي ، فطلبنا مقابلة وزير المعارف عندهم ، وتكلمنا معه في هذا الأمر ، وكانت حُجَّتنا أنكم قبلتُم وجود هؤلاء المسلمين في بلادكم لحاجتكم إليهم ، وإسهامهم في حركة حياتكم ، ومن مصلحتكم أن يكون عند هؤلاء المسلمين دين يراقبهم قبل مراقبتكم أنتم ، وأنتم أوَّلُ

المستفيدين من تدريس الدين الإسلامى لأولاد المسلمين .

وفعلاً فى اليوم التالى أصدروا قراراً بتدريس الدين الإسلامى فى مدارسهم لأولاد المسلمين ؛ ذلك لأن الإسلام دين مثمر ، ودين إيجابى تضمنه وتأمنه .

فلأهمية الصلاة ذكرها الحق سبحانه فى أول أفعال الخيرات ، وفى مقدمتها ، فقمّة الخيرات أنْ تتواجد مع الإله الذى يهبُكَ هذه الخيرات .

﴿ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ .. (٧٣) ﴾ [الأنبياء] والزكاة تطبيق عملىٌّ للاستجابة لله حين تُخرج جزءًا من مالك لله ، والصلاة دائماً ما تُقرَن بالزكاة ، فالعلاقة بينهما قوية ، فالزكاة تضحية بجزء من المال ، والمال فى الحقيقة نتيجة العمل ، والعمل فرع الوقت ، أما الصلاة فهى تضحية بالوقت ذاته .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾ [الأنبياء] أى : مطيعين لأوامرنا ، مجتنبين لنواهينا ، فالعبادة طاعة عابد لمعبوده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ(١) ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ(٢) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ (٧٤) ﴾

---

(١) هى قرية ، سَدُوم ، قال ابن عباس : كانت سبع قرى ، قلب جبريل عليه السلام ستة وابقى واحدة للوط وعياله . وهى زُغَر التى فيها الثمر من كورة فلسطين إلى حد السراة . ولها قرى كثيرة إلى حد بحر الحجاز ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٤) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٥) : « فى الخبائث التى كانوا يعملونها قولان : احدهما : اللواط . والثانى : الضراط ، أى : كانوا يتضارطون فى ناديهم ومجالسهم » .

﴿ وَلُوطًا .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] جاءتْ منصوبة ؛ لأنها معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ .. (٥١) ﴾ [الأنبياء] وأيضاً : آتينا لوطاً رشده . والحُكْم : يعني الحكمة ، وأصله من الحكمة[١] التي تُوضَع في حنك الفَرَس ؛ لأن الفرس قد يشرد بصاحبه أو يتجه إلى جهة غير مرادة لراكبه ؛ لذلك يوضع في حنكه اللجام أو الحكمة ، وهي قطعة من الحديد لها طرفان ، يتم توجيه الفرس منهما يميناً أو شمالاً .

ومن ذلك الحكْمة ، وهي وَضْع الشيء في موضعه ، ومنه الحُكْم ، وهو : وضع الحقّ في موْضعه من الشاكي أو المشكو أي : الخصمين .

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] وفرْقٌ بين العلْم والحكم: العلم أن تُحقِّق وتعرف ، أمَّا الحكم فسلوك وتطبيق لما تعلم ، فالعلم تحقيق والحكم تطبيق .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] فقد نجَّى الله إبراهيم عليه السلام من النار ، وكذلك نجَّى لوطاً من أهل القرية التي كانت تعمل الخبائث ، والخبائث في قوم لوط معروفة[٢] .

لذلك يقول بعدها : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) ﴾ [الأنبياء] ورجل السَّوْء هو الذي يسوء كل مَنْ يخالطه ، لا يسوء البعض دون البعض ، فكل مَنْ يخالطه أو يحتكّ به يسوؤه .

(١) الحكمة : حديدة في اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه . [لسان العرب ـ مادة : حكم] .

(٢) أخرج ابن عساكر عن أبي أمامة الباهلي قال : كان في قوم لوط عشر خصال يُعرفون بها : لعب الحمام ، ورمي البندق ، والمكاء (الصَّفير بالفم) ، والخذف في الأنداء (رَمْي الحصى أو النوى) ، وتسبيط الشعر ، وفرقعة العلك (اللبان) ، وإسبال الإزار (إطالته حتى يجاوز الكعبين) ، وحبس الأقبية ، وإتيان الرجال ، والمنادمة على الشراب . وستزيد هذه الأمة عليها . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٤٤] .

والفسْق : الخروج عن أوامر التكليف ، وهذا التعبير ككُلِّ التعابير القرآنية مأخوذ من واقعيات الحياة عند العرب ، فأصل الفسْق من فَسَقت الرُّطبة عن قشرتها حين تستوى البلحة فتنفصل عنها القشرة حتى تظهر منها الرُّطبة ، وهذه القشرة جُعلَتْ لتؤدى مهمة ، وهى حفْظ الثمرة ، كذلك نقول فى الفسق عن المنهج الدينى الذى جاء ليؤدى مهمة فى حياتنا ، فمَنْ خرج عنه فهو فاسق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

كيف ؟ ألسنا جميعاً فى رحمة الله ؟ قالوا : لأن هناك رحمة عامة لجميع الخَلْق تشمل حتى الكافر ، وهناك رحمة خاصة تعدى الرحمة منه إلى الغير ، وهذه يعنُون بها النبوة ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ **وقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] فردَّ الله عليهم : ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ** .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف] أى : النبوة : ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

فكيف يقسمون رحمة الله التى هى النبوة ، وهى قمة حياتهم ، ونحن نقسم لهم أرزاقهم ومعايشهم فى الدنيا ؟

فمعنى ﴿ **وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا** .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : فى ركْب النبوة ﴿ **إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : للنبوة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، لكن قمة هذه الرحمة جاءت فى النبى الخاتم والرسول الذى لا يُستدرك عليه برسول بعده ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء]

فالرسل قبل محمد ﷺ كانوا رحمة لأممهم ، أمّا محمد فرحمة لجميع العالمين .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن رسول آخر من أولى العزم من الرسل :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُوحًا .. (٧٦) ﴾ [الأنبياء] مثلما قلنا فى ﴿ وَلُوطًا .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] أى : آتيناه هو أيضاً رُشْده ﴿ إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ .. (٧٦) ﴾ [الأنبياء] والنداء فى حقيقته : طلبُ إقبال ، فإنْ كان من أعلى لأدنى فهو نداء ، وإنْ كان من مُساوٍ لك فهو التماس ، فإنْ كان من أدنى لأعلى فهو دعاء ، فحين تقول يا رب : الياء هنا ليست للنداء بل للدعاء .

وحين تمتحن تلميذاً تقول له : أعرب : رَبِّ اغفر لى ، فلو كان نبيهاً يقول : ربِّ مدعو . والتقدير يا رب ، ومن قال : منادى نسامحه لأنه صحيح أيضاً . فالياء فى أصلها للنداء ، لكنه غير دقيق فى الأداء . كذلك فى : اغفر لى ، إنْ قال فِعْل أمر نعطيه نصف الدرجة ، أما إن قال دعاء فَلَهُ الدرجة الكاملة .

فماذا قال نوح عليه السلام فى ندائه ؟ المراد قوله : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] (٢٦) ﴾ [نوح] فاستجاب الله لنبيه نوح عليه السلام : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) ﴾ [الأنبياء] والمراد بالكرب ما لبثه نوح فى دعوة قومه من عمر امتد ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما تحمَّله فى سبيل دعوته من عَنَت ومشقَّة قال الله فيها :

---

(١) الديار : من يسكن الدار أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية . ويقال : ما بالدار ديَّار . أى : ما فيها أحد . ومعنى دعاء نوح عليه السلام : أى : لا تذر أحداً منهم حياً . [القاموس القويم ١/٢٣٧] .

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا[1] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ ﴾ [نوح]

ثم لما أمره الله بصناعة الفُلك أخذوا يسخرون منه : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. ۝ ﴾ [هود]

إذن : استجاب الله دُعَاءه ونداءه ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ .. ۝ ﴾ [الأنبياء]

وفى موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝ ﴾ [الصافات]

فوصف الحق سبحانه إجابته لنوح بـ (نِعْم) الدالة على المدح .

فهل يعنى ذلك أن هناك مَنْ يكون بِئْس المجيب ؟ قالوا : نعم إذا سألته شيئاً فأجابك إليه وهو شَرٌّ لك ، أمَّا الحق سبحانه فهو نِعْم المجيب ؛ لأنه لا يُجيبك إلا بما هو صالح ونافع لك ، فإنْ كان في دعائك شَرٌّ ردَّه لعلمه سبحانه أنه لن ينفعك .

وكأن الحق الأعلى سبحانه يقول لك : أنا لستُ موظفاً عندك ، أجيبك إلى كُلِّ ما تطلب ، إنما أنا قيُّوم عليك ، وقد تدعو بما تظنّه خيراً لك ، وأعلم بأزلية علْمى أن ذلك شر لا خيرَ فيه ، فيكون الخير لك ألاَّ أجيبك ؛ لأننى نِعْمَ المجيب .

وَهبْ أن الله تعالى يجيب كُلاً منّا إلى ما يريد ، فكيف حال الأم التى تغضب مثلاً من وحيدها ، وفى لحظة الغضب والثورة تدعو عليه فتقول مثلاً : (إلهى أشرب نارك) ؟ فالحق ـ تبارك وتعالى ـ حين يردُّ مِثْل هذا الدعاء هو نِعْم المجيب ؛ لأنه نِعْم المانع .

---

(١) استغشى ثيابه وتغشّى بها : تغطّى بها كى لا يُرَى ولا يُسْمَع . [لسان العرب ـ مادة : غشى] .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء] أي : يدعو ويُلِحُّ في الدعاء بما يظنُّه خَيْراً ، وهو ليس كذلك .

﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) ﴾

ما زالت الآيات تقصُّ علينا طرفاً مُوجزاً من رَكْب النبوات ، ونحن في سورة الأنبياء ، وحينما نتأمل هذه الآية نجد أن الله تعالى يُعذِّب بالماء كما يُعذِّب بالنار ، مع أنهما ضدَّانِ لا يلتقيان ، فلا يقدر على هذه المسألة إلا خالقهما سبحانه وتعالى .

وقصة غَرَق قوم نوح وأهل سبأ بعد انهيار سَدِّ مأرب أحدثا عقدة عند أهل الجزيرة العربية ، فصاروا حين يروْنَ الماء يخافون منه ويبتعدون عنه ، حتى إذا احتاجوا الماء يذهبون إلى مكان بعيد يملأون قِرَبهم ؛ ذلك لعلمهم بخطر الطوفان ، وأنه لا يُصَدُّ ولا يردُّه عنهم شيء .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن نبيين من أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾

(١) النفش : الرعي بالليل . نفشت : أي : رعت فيه ليلاً . [تفسير القرطبي ٤٤٨٦/٦] . نفشت الإبل : إذا تفرقت فرعَتْ بالليل من غير علم راعيها . [لسان العرب ـ مادة : نفش] .

يحكمان تعنى أن هناك خصومةً بين طرفين ، والحرْث : إثارة الأرض وتقليب التربة ؛ لتكون صالحة للزراعة ، وقد وردتْ كلمة الحرث أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ (٢٠٥)﴾ [البقرة]

والحرْث ذاته لا يهلك ، إنما يهلك ما نشأ عنه من زُروع وثمار ، فسمَّى الزرع حَرْثاً ؛ لأنه ناشيء عنه ، كما فى قوله تعالى أيضاً : ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ(١) أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ .. (١١٧)﴾ [آل عمران]

لكن ، لماذا سَمَّى الحرْث زَرْعاً ، مع أن الحَرْث مجرد إعداد الأرض للزراعة ؟ قالوا : ليُبيِّن أنه لا يمكن الزرع إلا بحرْث ؛ لأن الحرْث إهاجة تُرْبة الأرض ، وهذه العملية تساعد على إدخال الهواء للتربة وتجفيفها من الماء الزائد ؛ لأن الأرض بعد عملية الريِّ المتكررة يتكوَّن عليها طبقة زَبَدية تسدُّ مسَام التُّربة ، وتمنع تبخُّر المياه الجوفية التى تُسبِّب عطباً فى جذور النبات .

لذلك ، ليس من جَوْدة التربة أن تكون طينية خالصة ، أو رملية خالصة ، فالأرض الطينية تُمسك الماء ، والرملية يتسرَّب منها الماء ، وكلاهما غير مناسب للنبات ، أما التربة الجيدة ، فهى التى تجمع بين هذه وهذه ، فتسمح للنبات بالتهوية اللازمة ، وتُعطيه من الماء على قَدْر حاجته .

---

(١) الصِّر : البرد الشديد . [القاموس القويم ١/٣٧٤] . قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٩٧) : « عن ابن عباس أيضاً ومجاهد (فيها صر) أى : نار ، وهو يرجع إلى الأول ، فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار ، كما يُحرق الشيء بالنار » .

لذلك سَمَّى الزرْع حَرْثاً ؛ لأنه سببُ نمائه وزيادته وجَوْدته ، وليُلفت أنظارنا أنه لا زَرْع بدون حَرْث ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة]

ففى هذه المسألة إشارة إلى سُنَّة من سُنَن الله فى الكون ، هى أنك لا بُدَّ أن تعمل لتنال ، فربُّك وخالقك قدَّم لك العطاء حتى قبل أنْ تُوجد ، وقبل أن يُكلِّفك بشىء ، ومكثت إلى سِنِّ البلوغ ، تأخذ من عطاء الله دون أنْ تُحاسبَ على شىء من تصرفاتك .

وكذلك الأمر فى الآخرة سيعطيك عطاءً لا ينتهى ، دون أن تتعب فى طلبه ، هذا كُلُّه نظير أنْ تطيعه فى الأمور الاختيارية فى سِنِّ التكليف .

إذن : لقد نلْتَ قبل أن تعمل ، وستنال فى الآخرة كذلك بدون أنْ تعمل ، فلا بُدَّ لكَ من العمل بين بدايتك ونهايتك لتنال الثمرة .

لذلك ، فى الحديث الشريف يقول ﷺ : « أَعْطُوا الأجير أجره قبل أنْ يجفَّ عَرَقُه »[1] ما دام قد عمل فقد استحق الأجر ، والأمر كذلك فى مسألة الحرث .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ .. (٧٨) ﴾ [الأنبياء] هذه خصومة بين طرفين ، احتكما فيها لداود عليه السلام : رجل عنده زرع ، وآخر عنده غنم ، فالغنم شردتْ فى غفلة من صاحبها فأكلتْ الزرع ، فاشتكى صاحبُ الزرع صاحبَ الغنم لداود ، فحكم فى هذه

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى « حلية الأولياء » (٧/ ١٤٢) من حديث أبى هريرة ، والطبرانى فى المعجم الصغير (١/ ٢٠) من حديث جابر بن عبد الله ، وابن ماجة فى سننه (٢٤٤٣) من حديث عبد الله بن عمر ، وفى سند ابن ماجة ضعيفان . قاله البوصيرى فى الزوائد .

القضية بأن يأخذَ صاحبُ الزرعِ الغنَم ، وربما وجد سيدنا داود أن الزرع الذى أتلفتْه الغنم يساوى ثمنها .

فحينما خرج الخَصْمان لقيهما سليمان ـ عليه السلام ـ وكان فى الحادية عشرة من عمره ، وعرف منهما حكومة أبيه فى هذه القضية ، فقال : (غير هذا أرفق بالفريقين)[1] فسمَّى حُكْم أبيه رِفْقاً ، ولم يتهمه بالجَوْر مثلاً ، لكن عنده ما هو أرفق .

فلما بلغت مقالته لأبيه سأله : ما الرِّفق بالفريقين ؟ قال سليمان : نعطى الغنم لصاحب الزرع يستفيد من لبنها وأصوافها ، ونعطى الأرض لصاحب الغنم يُصلحها حتى تعود كما كانت ، ساعتها يأخذ صاحب الغنم غنمه ، وصاحب الزرع زَرْعه .

ومعنى ﴿ نَفَشَتْ .. (٧٨) ﴾ [الأنبياء] نقول : نفش الشىء أى : أخذ حَجْماً فوق حَجْمه ، كما لو أخذتَ مثلاً قطعة من الخبز أو البقسماط ووضعتَها فى لبن أو ماء ، تلاحظ أنها تنتفش ويزداد حجمها نقول : انتفشت ، كما نقول لمن يأخذ حجماً أكثر من حجمه : « أنت نافش ريشك » .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾ [الأنبياء] أى مراقبين .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٧) أن سليمان سأل الخصمين بعد أن خرجا من عند أبيه داود ، بم قضى بينكما نبى الله داود ؟ فقالا : قضى بالغنم لصاحب الحرث ، فقال : لعل الحكم غير هذا ، انصرفا معى ، فأتى أباه فقال : « يا نبى الله إنك حكمت بكذا وكذا ، وإنى رأيت ما هو أرفق بالجميع ، وقال حكمه بين الخصمين . فقال داود : وفقت يا بنى لا يقطع الله فهمك .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

فداود وسليمان - عليهما السلام - نبيان ، لكل منهما مكانته ، وقد أعطاهما الله حُكْماً وعلماً ، ومع ذلك اختلف قولهما فى هذه القضية ، فما توصَّل إليه سليمان لا يقدح فى علْم داود ، ولا يطعن فى حُكْمه .

وما أشبه حُكْم كُلٍّ من داود وسليمان بمحكمة درجة أولى ، ومحكمة درجة ثانية ، ومحكمة النقْض ، ومحكمة الاستئناف ، وإياك أن تظن أن محكمة الاستئناف حين تردُّ قضاء محكمة درجة أولى أنها تطعن فيها .

فهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] فجاء بحكْم غير ما حكَم به أبوه ؛ لذلك فالقاضى الابتدائى قد يحكم فى قضية ، ويتم تأجيلها إلى أنْ يترقى إلى قاضى استئناف ، فيقرأ نفس القضية لكن بنظرة أخرى ، فيأتى حُكْمه غير الأول .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] حينما جمع السياق القرآنى بين داود وسليمان أراد أنْ يُبيِّن لنا طَرفاً ممَّا وهبهما الله ، فقوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] مظهر من مظاهر امتيازه ، وهنا يُبيِّن ميْزةً لداود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

والتسخير : قَهْر المسَخَّر على فعل لا يستطيع أنْ ينفكَّ عنه ،

وليس مختاراً فيه ، ونلحظ هنا الارتقاء من الأدْنى إلى الأعلى : أولاً : سخَّر الجبال وهى جماد ، ثم الطير وهى أرْقَى من الجماد ، لكن إنْ تصوَّرْنا التسبيح من الطير ؛ لأنه حَيٌّ ، وله روح ، وله حركة وصوت مُعبِّر ، فكيف يكون التسبيح من الجبال الصماء ؟

بعض العلماء حينما يستقبلون هذه الآية يأخذونها بظواهر التفسير ، لا بُعمْق ونظر فى لُبِّ الأشياء ، فالجبال يروْنها جامدة ، ليس لها صوت مُعبِّر كما للطير ؛ لذلك يعجبون من القول بأن الجبال تُسبِّح ، فكيف لها ذلك وهى جمادات ؟

لكن ؛ ما العجب فى ذلك ، وأنت لو قُمْتَ بمَسْح شامل لأجناس الناس فى الأرض ، واختلاف لغاتهم وألسنتهم وأشكالهم وألوانهم بحسْب البيئات التى يعيشون فيها ، فالناس مختلفون فى مثل هذه الأمور متفقون فقط فى الغرائز ، فالجوع والعطش والخوف والضحك والعواطف كلها غرائز مشتركة بين جميع الأجناس ، وهذه الغرائز المشتركة ليس فيها اختيار .

ألم تَرَ إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم] فما دام أنه سبحانه الذى يُضحِك ، والذى يُبكِى ، فلن نختلف فى هذه الأمور .

فالكلام - إذن - من الأشياء التى يختلف فيها الناس ، وهذا الاختلاف ليس فى صوت الحروف ، فالحروف هى هى ، فمثلاً حين ننطق (شرشل) ينطقها أهل اللغات الأخرى كذلك : شين وراء وشين ولام ، فنحن - إذن - متحدون فى الحروف ، لكن نختلف فى معانى الأشياء .

وقد يعزّ على بعض الحناجر أن تنطقَ ببعض الحروف بطبيعة تكوينها ، فغيْر العربى لا ينطق الضاد مثلاً ، فليس عندهم إلا الدال ، أما فى العربية فعندنا فَرْق بين الدال المرقّقة والضاد المفخّمة ، وفرْق بين السين والثاء ، وبين الزاى والذال ، وبين الهمزة والعَيْن ، لذلك نجد غير العربى يقول فى (على) : ألي ، فليس له قدرة على نُطْق العين ، وهو إنسان ناطق بلغة ومُتكلِّم .

فإذا كنا - نحن البشر - لا يفهم بعضُنا لغاتِ بعض ، فهذا عربى ، وهذا إنجليزى ، وهذا فرنسى .. الخ فإذا لم تَتعلم هذه اللغة لا تفهمها .

ومعلوم أن اللغة بنت المحاكاة وبنت السماع ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان ، والأبكم الذى لا يتكلم كان أصمَّ لا يسمع ، والطفل ينطق بما سمع ، فلو وُضِع الطفل الإنجليزى فى بيئة عربية لنطق بالعربية .. وهكذا .

فلماذا نعجب حين لا نفهم لغة الطَّيْر أو لغة الجمادات ، وهى أشياء مختلفة عنّا تماماً ، فلا يعنى عدم فَهْمنا للغاتهم أنهم ليست لهم لغة فيما بينهم يتعارفون عليها ويُعبِّرون بها .

إذن : لا تستبعد أنْ يكونَ للأجناس الأدْنى منك لغات يتفاهمون بها وأنت لا تفهمها ، بدليل أن الله تعالى أعطانا صورةً من لغات الطير ، وهذه يعلمها مَنْ علَّمه الله ، كما امتنَّ الله على سليمان وعلَّمه لغة الطير ، ففهم عنها وخاطبها .

وقد حكى الحق سبحانه وتعالى عنه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .. (١٦) ﴾ [النمل] ولولا أن الله علَّمه لغة الطير ما علمها .

وها هو الهدهد يقول لسليمان عليه السلام لما تفقَّد الطير ، ولم يجد الهدهد فتوعَّده : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

ونلحظ هنا دقَّة سليمان ـ عليه السلام ـ في استعراض مملكته ، فلم يترك شيئاً حتى الهدهد ، ونلحظ أدبه في قوله : ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] فقد اتهم نظره وشكَّ أولاً ، فربما الهدهد يكون موجوداً ، ولم يَرَهُ سليمان .

وانظر إلى قَوْل الهدهد للملك : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ .. (٢٢)﴾ [النمل] ثم معرفته الدقيقة بقضية التوحيد والعقائد : ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ..(٢٤)﴾ [النمل]

ويعترض الهدهد على هذا الشرك ، ويردُّ عليه بشيء خاص به ، وبظاهرة تُهمه : ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ(١) فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥)﴾ [النمل]

فاختار الهدهد مسألة إخراج الخبْء ؛ لأن منه طعامه ، فلا يأكل من ظاهر الأرض ، بل لا بُدَّ أنْ ينبشَ الأرض ، ويُخرج خبأها ليأكله .

وكذلك النمل ، وهو أقلُّ من الهدهد ، فقد كان للنملة مع سليمان لغة ، وكلام ، وفَهْم عنها : ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا .. (١٩)﴾ [النمل]

---

(١) الخبا : المخبوء المخفيّ . [القاموس القويم ١/١٨٥] . قيل : الخبء الذي في السماوات هو المطر ، والخبء الذي في الأرض هو النبات . قيل : والصحيح أن الخبء كل ما غاب . [لسان العرب ـ مادة : خبأ] .

إذن : كان الكلام للنمل ، لكنْ فَـهِمه سليمـان ؛ لذلك قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل]

ذلك لأننا لا نفهم هذه اللغات إلا إذا فَهَّمنا الله إياها .

ومع هذا حينما وقف العلمـاء أمام هذه الآية ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] قالوا : يعـنى تسبيح دلالـة ، فهى بحالها تدلُّ على الخالق سبحانه ، وليس المراد التسبيح على حقيقته ، وأَوْلى بهم أنْ يعتـرفوا لها بالتسبـيح ؛ لكنه تسبيح لا نفـهمه نحن ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

والآن نرى فى طموحات العلماء السَّعْى لعـمل قاموس للغة الأسماك ولغة بعض الحـيوانات ، ولا نستبـعد فى المستـقبل عمل قامـوس للغة الأحجار والجمادات ، وإلا فكيف ستكون ارتـقاءات العلم فى المستقبل ؟ وهذه حقيقة أثبتها القرآن تنتظر أن يكتشفها العلم الحديث .

والمزيّة التى أعطاها الله تعالى لنبيـه داود ـ عليه السلام ـ ليستْ فى تسبيح الجبال ؛ لأن الجبال تُسبِّح معه ومع غيره ، إنما الميزة فى أنها تُردِّد مـعه ، وتوافقـه التسبـيح ، وتجاوبه ، فحـين يقول داود : سـبحـان الله تردد وراءه الجـبال : سـبحـان الله . وكأنهم جـمـيعـاً (كورس) يردد نشيداً واحداً .

وليس معنى الجماد أنه جـامد لا حياةَ فيه ، فهـو جماد من حيث صورة تكوينه ، ولو تأملتَ المـحاجر فى طبقـات الأرض لوجدتَ بين الأحجـار حيـاة وتفاعـلاً وحركـةً منذ ملايين السنيـن ، ونتيجـة هذه الحركة يتغـير لَوْنُ الحجر وتتغيـر طبيعته ، وهذا دليل الحيـاة فيها ، انظر مثلاً لو دهنتَ الحـجرة لَوْناً معيناً تراه يتغـير مع مرور الزمن ، إذن : فى هذه الجمادات حياة ، لكن لا ندركها .

وسبق أن أشرنا إلى أن الذين يقولـون فى معجزات النبى ﷺ أنه سبَّح الحصى فى يده . أن هذه المـقولة غير دقيقة تحـتاج إلى تنقيح عقلى ، فالحجر مُـسبِّح فى يد رسول الله ، وفىْ يد أبى جهل ، إذن : قل : إن المعجزة هى أن رسول الله سمع تسبيح الحصى فى يده .

فما من شىء فى كـون الله إلا وله حياة تناسبـه ، وله لغة يُسبِّح الله بها ، أدركناها أم لم ندركها ؛ لأن الكلام فـرع وجود حياة ، وكل شىء فى الوجود له حيـاة ، فعلبة الكبريت هذه التى نستعـملها يقول العلماء : إن بين ذراتها تفاعـلات تكفى لإدارة قطار حول العالم . هذه التفاعلات دليل حركة وحياة .

ألم يقُلْ الحق سـبـحانه وتعـالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْـهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فكلُّ مـا يقال له شىء ـ إلا وَجْـه الله ـ هالك ، والهـلاك يعنى أن فـيه حـياةً ؛ لأن الهـلاك ضـد الحيـاة ، كمـا جـاء فى قوله تعـالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ (٤٢) ﴾ [الأنفال]

فكُلُّ شىء فى الوجود له حيـاة بقانونه ، وليس من الضرورى أن تسمع الكلام حتى تعـترف بوجوده ، فهناك مثـلاً لغة الإشارة ، وهى لغة مفهومة ومُعبِّرة ، ألاَ ترى مثلاً إلى الخادم ينظر إليه سيده مجرد نظرة يفهم منها ما يريد أنْ يُقدِّمه للضيف مثلاً .

البحـارة لهم إشارات يتـعارفـون عليها ويـتفاهمـون بها . جـهاز التلغـراف لَوْن من ألوان الأداء ووسـيلة من وسـائل التـفـاهم ، إذن : الأداء والبـيان ليس من الـضرورى أنْ يتمَّ بالكلام المـسـموع ، إنمـا تتفـاهم الأجناس ويُكلِّم بعـضهـا بعضـاً كلٌ بلغتـه ، فإذا أراد الله أن يفيض عليك من إشراقاته أعطاك من البصيرة والعلم ما تفهم به لغات غيرك من الأجناس .